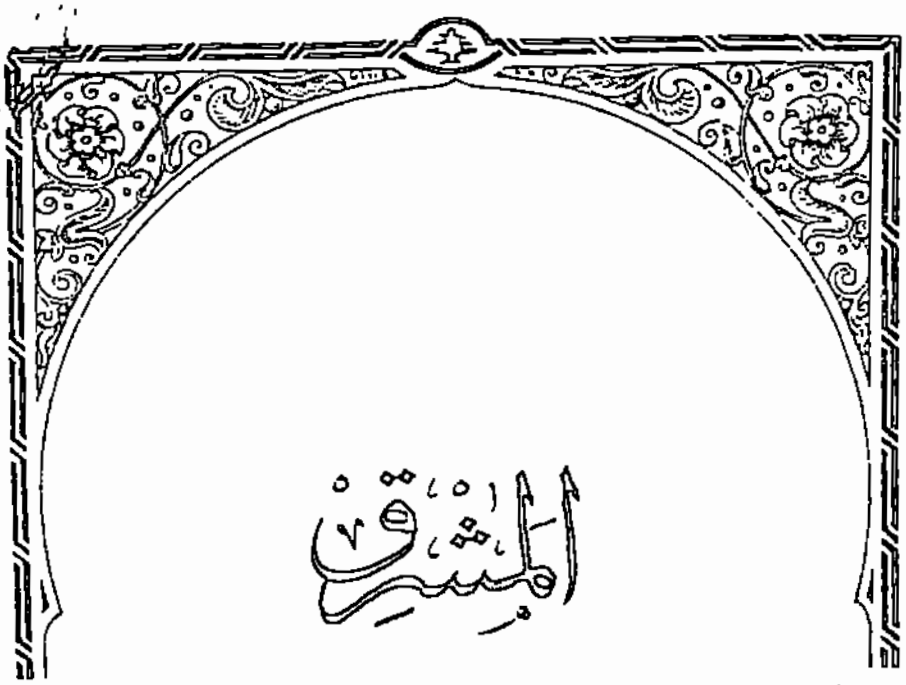

السنة الثامنة والخمسون

تشرين الأول ١٩٦٤ - تشرين الأول ١٩٦٤

نصارى غسان والسريان

بقلم الخوري اسحق ارملة (†)

ابقت لنا الصحف السريانية الثمينة شذرات جمة من اخبار بني « جفنة » الغسانيين تؤيد تدينهم بالنصرانية ثم انحيازهم الى السريان المنوفيزيتيين ومدافعتهم عن بطاركتهم واساقفتهم ورهبانهم . وتشير الى ما شادوه من الأديار والكنائس في الاراضي التي انتزحوا اليها واستعمروها . وتنبئ بما كان للوكنهم او بطاركتهم وأمرائهم من المنزلة والنفوذ في بلاط قياصرة قسطنطينية . فرأينا ان نُطرف قراء المشرق الاغر بشيء من ذلك مستندين في ما نكتبه الى مؤرخي السريان المشاهير بدءاً من يوحنا الآمدي اسقف آسيا في القرن السادس حتى المفريان غريغوريوس ابن العبري في القرن الثالث عشر قاسمين الكلام قسمين نثبت في الاول اخبار الغسانيين الدينية وفي الثاني اخبارهم السياسية .

القسم الاول

آحبـــار غسان الدينية

١ ــ من هم الغسانيون ؟

الغسانيون او الغساسنة قبيلة كبيرة من قبائل العرب تنحدر فيما قيل من كهلان بن سبأ . غادرت اليمن وطنها الاصلي على اثر حدوث سيل العرم نحو السنة ١٢٠ للميلاد واقبلت الى بادية دمشق الشام وحلت محل بني سليح اليمنيين فاستوطنت صحارى البلقاء والصفا وحوران وبرية سوريا وجعلت الجابية في جولان عاصمة لها . واتخذ فريق من أمرائها مدينة الرصافة على شاطئ الفرات مركزاً لهم . وكانت تلك البلاد في عهد بني ملكاً لسريان الآراميين معروفة بدولة « تاشان » او « باسان » في جملتها حبل الدروز[١] .

٢ ــ حدود بلاد غسان

كانت حدود الاراضي الغسانية شرقاً بادية سوريا والفرات . وغرباً غور الاردن . وشمالاً سهول دمشق وحلب . وجنوباً جبل جلعاد . وكانت جلعاد الحد الفاصل بين بلاد آرام وبلاد العرب وعند ذلك الجبل تمَّ اتفاق يعقوب أبي الاسباط وخاله لابان الآرامي السرياني فنصبا كومة الشهادة وسماها لابان : « يَجَرْ سهدوثا » بلغته السريانية وسماها يعقوب « جلعاد » بلغته العبرية[٢] .

فالى هذه الاراضي الخصيبة انترح الغسانيون العرب فاستطابوا مروجها ورياضها واستحلوا مزارعها وغزارة مياهها واتخذوها مقرّاً لهم ولمواشيهم وامتزجوا باهالي البلاد الاصليين والتقفوا لغتهم الآرامية السريانية القريبة من لغتهم العربية . وبتوالي الاحقاب اتسعت دائرة مملكتهم حتى بلغت الرصافة عند الفرات الغربية[٣] . غير ان عددهم لم يتغلب بتة على العنصر السرياني الاصلي في بلاد سوريا بل بقي السهم المعلى فيها للاراميين السريانيين[٤] .

٣ ــ اصل لفظ غسان

لم يتعرض احد فيما نعهد للتدقيق عن اصل لفظ « غسان » وعن حقيقة

(١) تاريخ لبنان : للاب مرتين اليسوعي ٣٦٠–٣٦٢ .
(٢) تكوين ٣١ : ٢٤ .
(٣) تاريخ الرهاوي : طبع البطريرك افرام رحماني ٨٠ : ١٣٢ .
(٤) المشرق ٣ : ١٩٠٠ : ٢٦٨ و ٢٧٣ ومجلة دمشق ٥ : ١٩١١ : ٣٥٧–٣٦٠ .

معناد . فقد روى غير واحد من المؤرخين ان الغساسنة بعد انزاحهم عن اليمن نزلوا على ماء يقال له « غسان » وصيروه شربهم فسموا باسمه « غسان »[1] . وهذا لفظ غسان ليس عربياً . لان « غسّ » العربي معناه « مصغ » والغسان معناه « حدّة انتصاب » . والغساني معناه « الجميل جداً »[2] . فاللفظ اذاً آرامي سرياني . ولنا في تخريجه مذهبان : الاول انه مشتق من فعل (جها غسا) بمعنى فاض الماء ومصدره « جهسثا غسيا » بمعنى الفيضان . والثاني قد يكون غسان تحريف « بسّان » بالباء بدلاً من الغين . ومن المعلوم ان العرب اليمنيين بقدومهم الى بادية دمشق نزلوا في ارض بسّان التي كانت ملكاً للاراميين وقد ورد لفظ بسّان نحو ٦٠ مرة في الكتاب الكريم وأطلق على الصحراء التي احتلها الغساسنة . وهو في العبرية בשן بشن وفي السريانية صم بيشان بالشين . فنقله اليونان وغيرهم الى لغاتهم فصار Basin بقلب الشين سيناً لخلو تلك اللغات من حرف الشين . ثم ان قلب الباء العبرية والسريانية غيناً في لفظ « بسان » قد يكون إما لتشابه حرفي الباء والجيم في كلتا اللغتين او ان العرب أنفسهم حرّفوا اللفظ كما حرفوا الفاظاً جمّة نقلوها عن اللغات العجمية . فالخلاصة ان لفظ « غسان » ليس عربياً بتة لكنه آرامي سرياني قد يكون من فعل « غسا » او تحريف « بسان » .

٤ — امراء غسان

ازداد عدد الغسانيين في بادية سوريا على كرور الاحقاب وقويت شوكتهم فلم يرَ الغياصرة الا ان يعقدوا لكبيرهم او شيخهم الولاية على تلك الاطراف ليردوا عن اراضي مملكتهم خصوصاً غارات العرب المناذرة عمّال الدولة الفارسية . واطلقوا على ذلك الشيخ لقب « امير » او « بطريق » او « ملك » وفوضوا اليه ادارة بني قومه على مبلغ معلوم يؤديه لهم . وتسلسلت تلك الامارة فيهم تسلسلاً متواصلاً منذ القرن الثالث للميلاد حتى القرن السابع . وعُرفوا اولا باسم آل جفنة جفنة[3] تيمناً باسم قائدهم الاكبر الذي جاء بهم عام ٢٠٥ م الى بادية سوريا وتولى شؤونهم حتى السنة ٢٤٨ م وخلفه ابنه عمرو فابنه ثعلبة فالحارث الاول فابنه جبلة الاول فابنه الحارث الثاني ثم قامت بعده زوجته الاميرة معاوية او ماويا عام ٢٧٣ فانتشرت النصرانية في عهدها بين العرب انتشاراً عظيماً .

(١) مجاني الادب : للاب لويس شيخو ٣ : ٣١٢ نقلا عن حمزة الاصبهاني .
(٢) اقرب الموارد : للسيد الشرتوني : صفحة ٨٧٣ .
(٣) تاريخ الزهاوي : ٨٠ : ١٣٢ .

٥ ــ الاميرة معاوية النصرانية

اشتهرت هذه الاميرة النبيلة في عهد والبس قيصر (٣٦٤ــ٣٧٩) وذاعت بكل قواها عن الدين المسيحي فأحرزت ذكرى مجيدة أثبتها مؤرخو السريان وغيرهم في ما خلفوه من الاخبار الصحيحة . قال ميخائيل الكبير (١١٦٧ــ ١٢٠٠) مـا تعريبه :

« كلف الحارث ملك العرب جمال معاوية النصرانية الرومية فتزوجها . وبعد اثر ذلك خلفته في العرش الملكي واخذت تعنّت من في ممتلكاتها من النصارى الروم وتضطهدهم بما يصعب عليهم ادارته . ثم كتبت الى والبس قيصر المتحزّب للاريوسيين تسأله ان يرخص في اقامة الراهب موسى استقفاً للنصارى العرب والا فانها تنادي في الشعب على الروم . فلما يرَ القيصر الا النزول عند طلبها لكنه قرر ان يتولى « السيامة » اسقف اريوسي غير ان الراهب موسى لم يرضَ ان يقبل « السيامة » الا بوضع يد اسقف اريوسي فتم له ذلك بهمة معاوية الملكة وتقلد الرئاسة الاسقفية وعاد الى بلاده وتضم ان النصرانية على يده جماهير عديدة من العرب تساعده الملكة المؤمنة في جهاده المقدس بكل استطاعتها (١

وكان ذلك مدعاة الى عقد الاتفاق بين الروم والعرب وانضمام العرب الى الدين المسيحي(٢) .

٦ ــ سلسلة الامراء الغسانيين

أطلق القدماء على امراء غسّان تارةً اسم « جفنة » وطوراً اسم « الحارث » كما اطلقوا اسم « ابجر » على ملوك الرها واسم « ارشاق » على ملوك فرثيا. فاشكل من ثَمّ على ثقات المؤرخين ضبط أسمائهم وسنّي أمارتهم ووفاتهم . على ان بعض المستشرقين دققوا وتعمقوا كثيراً في درس أخبار اولئك الأمراء حتى توصلوا الى انشاء سلسلة لهم لا بأس من سردها على علاتها كما يلي :

اوّل من تولى إمارة غسان كما ألمعنا هو جفنة (٢٠٥ــ٢٤٨ م) وخلفه ابنه عمرو (٢٤٨ــ٣٠٠) ثم قام ابنه ثعلبة (٣٠٠ــ٣٠٣) فتقلد قياصرة الروم الإمارة على سكان بادية الشام وحوران . وتولى الإمارة بعده الحارث الاول (٣٠٣ــ ٣٣٠) وخلفه ابنه جبَلة الاول (٣٣٠ــ٣٦٠) فجاهر بالنصرانية ونهج نهجه خلق كثير . وتولى بعده ابنه الحارث الثاني (٣٦٠ــ٣٧٣) وعلى أثر وفاته أفضت الامارة الى زوجته معاوية (٣٧٣ــ٣٨٠) فانتشرت النصرانية في غسان بجهودها ونفوذهـا .

(١) تاريخ ميخائيل الكبير : طبع الاب شابو في باريس : صفحة ٢٥١ من الاصل السرياني .

(٢) تاريخ الدول السرياني : لابن العبري : طبع الاب بولس بيجان في باريس : صفحة ٦٥ و٦٦ .

وبعد الملكة معاوية قام بالإمارة الغسانية المنذر الاول فالنعمان الاول فجبلة الثاني فأيهم الاول فعمرو الثاني . وقد استغرقت إمارتهم زهاء ٤٠ سنة (٣٨٠–٤٢٠) . وبعد هولاء الأمراء الخمسة تولى جفنة الثالث فالنعمان الثاني فالنعمان الثالث فالنعمان الرابع فالحارث الثالث فالنعمان الخامس(٤٢٠–٤٩٠). ونهض بالامارة بعد هولاء الستة المنذر الثاني فعمرو الثالث فحجر الاول فأبو شمر وهو الحارث الرابع فجبلة الثالث . وقد ساسوا العرب الغسانيين ٣٩ سنة (٤٩٠–٥٢٩) . ومالوا الى عقيدة السريان المنوفيزيتيين القائلين بالطبيعة الواحدة .

وتقلد الإمارة عام ٥٢٩ الحارث الخامس ابن جبلة الثالث حتى السنة ٥٦٥ وولي بعده ابنه المنذر الثالث (٥٦٥–٥٨٠) وخلفه الحارث السادس الاصغر ويقال له جبلة الرابع (٥٨٠–٥٨٧) وجلس بعده عمرو الرابع (٥٨٧–٥٩٧).

وفي السنة ٥٩٧ افضت الإمارة الى النعمان السادس حتى السنة ٦٠٠ واشتهر اسمه باني جفنة او ابي كرب [1] . وقام بعده جحر الثاني فعمرو الخامس (٦٠٠–٦١٥) فالحارث السابع وشراحيل وأيهم الثاني والمنذر الرابع (٦١٥–٦٣٠) ثم عمرو السادس وجبلة الخامس وجبلة السادس (٦٣٠–٦٣٧) وهو آخر الامراء الغسانيين [2] وسيأتيك تفصيل اخبار بعضهم في هذا المقال . ويستخلص من هذه السلسلة ان الإمارة الغسانية استغرقت ٤٣٢ سنة بدؤها السنة ٢٠٥ ونهايتها السنة ٦٣٧ .

٧ – اساقفة غسان الارثوذكسيون

اوّل من تولى اسقفية غسان هو الاسقف موسى السابق الذكر . وجاء في قيود المجمع النيقاوي المسكوني الاول عام ٣٢٥ اسماء ستة من اساقفة البلاد العربية بينهم اساقفة بصرى وفيلدلفيا وحشبون . وقنوات وتدمر [3] .

وحضر المجمع القسطنطيني المسكوني الاول عام ٣٨١ اسقفان من بلاد غسان هما : اسقف ادرع ؛ واسقف السويداء [4] .

اما المجمع الخلقيدوني المسكوني فقد حضره ٦٣٦ اسقفاً عام ٤٥١ منهم اساقفة مطرانية بصرى حاضرة حوران وهي سادس مطرانيات الكرسي الانطاكي. وكان يخضع لها ١٩ اسقفاً حضر منهم المجمع المشار اليه احد عشر اسقفاً [5] .

(١) مخطوطة المتحف البريطاني السريانية رقم ٥٨٥ .
(٢) شرح مجاني الادب : للاب لويس شيخو : مجلد ١ صفحة ٥١٢ .
(٣) مخطوطة دير الشرفة ٤–٧ صفحة ٨٣ من الفهرس .
(٤) ميخائيل الكبير ١٦٠ .
(٥) ميخائيل الكبير ١٩٧ و ١٩٨ و ٢٠٠ ومجلة الآثار الشرقية : السنة الاولى : صفحة ٣٠٠ الخ .

٨ – اساقفة غسان المونوفيزيتيين الاولون

ما كادت تنتشر عقيدة المجمع الخلقيدوني المقدّس في تأييد الطبيعتين الالهية والانسانية بالسيد المسيح عزّ شأنه حتى راح يناهضها فريق من اساقفة السريان ولا سيما في مرتبيات غسان الغامرة . فقد تشبّثوا كل التشبّث بعقيدة الطبيعة الواحدة اعني المونوفيزيتية وحموها حبا بامراؤهم بكل مكتسب ونفوذهم . واليك اسماء من اتصلت بنا معرفتهم من اولئك الاساقفة وابرشياتهم :

يوحنا اسقف الرهبان العرب في حوّارين . توما بيروذ ايسيدور قنسرين . توما قرقيسيا . فولا الرقة . وقس عابيه حبرس اسقف قبيلة معدّ وواليه اسقف المناذرة [1] فهؤلاء وجماعاتهم من بعدهم استساغوا في التعصب لملّة نصفة "الوحدة" حتى اطول طريلة

٩ – الحارث الخامس (٥٢٩–٥٦٥) وافرام الاول بطريرك انطاكية (٥٢٦–٥٤٥)

فاق الحارث الخامس سائر أمراء غسان أشلافه وخلفائه في غلوّه بالمذهب المونوفيزيتي ومناضلته عن القائلين به . ذلك ما حمل يسطنيان قيصر (٥٢٧–٥٦٥) ان يكتب الى افرام الاول البطريرك الانطاكي ليقصد بلاد غسان ويواجه الحارث ويحادثه في العدول عن رأيه والخضوع لعقيدة المجمع الخلقيدوني [2] .

لبّى البطريرك طلب القيصر وارتحل في بعض حاشيته الى غسان واجتمع بالحارث الخامس وجرت بينهما مناقشة لم تتجاوز معقول الامير ومنهومه . فلم ينجح البطريرك في رسالته . وبعد هذا وجّه البطريرك افرام الى آمد (دياربكر) وطنه جنوداً قصدوا دير مار ماما وكان ديراً عظيماً غاصاً بالرهبان فتهدّدوا رهبانه واضطرّوهم قاطبة ان يتبعوا عقيدة المجمع الخلقيدوني فرفضوا كل الرفض وهجروا ديرهم الكبير وتفرقوا شذر مذر في جنوبي آمد وبراري غسان [3] التي كانت حافلة بالاديار .

١٠ – الحارث الخامس ويعقوب البرداعي مطران الرها (٥٤٥–٥٧٨)

أعرب الحارث الخامس عن جزيل اعتباره ليعقوب البرادعي وعن ثقته بتقواه . قال يوحنا اسقف اسيا ما خلاصته :

(١) ميخائيل الكبير ٢٦٦ .
(٢) ميخائيل الكبير ٢٧٤ و ٢٧٩ و ٢٨٣ و ٢٨٨ و ٣١٠ .
(٣) يوحنا اسقف اسيا خبر ٣٥ صفحة ٦٢١ .

« ولد يعقوب ابن القسيس تويل بن معمر في مدينة تلّ موزل(١) . وترهب في دير سيلفا المجاور لها . واشتهر أمره في بلاط الحارث بن جبَلة . فانطلق اليه الحارث في فريق من ارباب دولته ليسأله ان يبتهل الى الله التدبير كي ينقذ الغسانيين من وباء قتّال كاد يفتك بهم أجمع فتكاً ذريعاً . وحمل اليه شيئاً من الذهب والتقادم .

شعر يعقوب بقدوم الحارث فسبق وعبر الفرات ولاقاه وقال له : ما لك شككتَ في موهبة الله عزّ وجل ؟ ارجع الى بيتك والى أرضك انت وارباب دولتك واطلق سبيل ذلك الراهب الزرع القادم من جبل سيناء الى غسان وقد قبض عليه جنودك . فلما اطلقته زال الوباء عن غسان . فعاد الحارث في رجاله واكمل مشورة يعقوب واضمحلّ دين الوباء عن شعبه .

ثم توجه الراهب يعقوب البراذعي مع سرجيس ابن وطنه الى قسطنطينية . فرحبت بهما ثيودورا السريانية المنحية زوجة يسطينان قيصر . ولما بلغ خبرهما مسمع الحارث ارتحل الى العاصمة والتقى مع فريق من الآباء فسألوا الملكة ثيودورا ان تأذن لهم ليقيموا استقبل او ثلاثة لتجماعات المونوفيزيتية في سوريا اذ لم يكن فيها يومئذ سوى ثلاثة اساقفة : احدهم في جبل ماردين وثانيهم في بلاد فارس وثالثهم في الاسكندريـــه . فلبت الملكة طلبهم وطلب الحارث وسألت ثيودوسيوس بطريرك الاسكندرية فوضع اليد على يعقوب البراذعي وعلى زميله ثيودور فرقّى الاول الى كرسي مطرانية الرها والثاني الى كرسي مطرانية بصرى والقبائل العربية وفلسطين سوى اورشليم »(٢) .

وجعل المطران يعقوب ينصب اساقفة لمدن سوريا وغيرها كطرطوس وسلوقيا واللاذقية وقنسرين . ثم وضع اليد على الراهب سرجيس ابن وطنه المذكور آنفاً ورقّاه عام ٥٣٨ الى الرتبة البطريركية وهو ثاني بطاركة السريان الانطاكيين القائلين بالطبيعة الواحدة . وبعد ثلاثة اعوام رقّى يعقوب الى الرتبة عينها فولا الاسكندري وهو ثالث بطاركتهم . والخلاصة ان يعقوب هذا نصب ٨٩ اسقفاً وبطريركَين ومائة الف كاهن حتى ملأ بلاد سوريا من الاساقفة والشمامسة الذاهبين مذهبه(٣) . وأمست قبيلة غسان برمتها تابعة له تنفر كل النفور من النصارى القائلين بعقيدة المجمع الخلقيدوني حتى انها لم تكن ترضى ان تشاركهم في أكل الخبز . ولهذا السبب دُعي المونوفيزيتيون « يعاقبة » نسبةً الى يعقوب البراذعي المذكور(٤) .

١١ — توسط المنذر الثالث في تسوية النزاع بين بطريرك السريان الانطاكي وبطريرك الاقباط الاسكندري

على اثر وفاة سرجيس بطريرك السريان المذكور آنفاً نصب المطران يعقوب

(١) تل موزل : مدينة قديمة بين ماردين والرها تعرف اليوم باسم « ديرآن شهر » .
(٢) اخبار يوحنا اسقف آسيا : طبعة لاند : خبر ٤٩و٥٠ : صفحة ٢٥٤ .
(٣) فيه ٣٦٤ و ٣٧١ و ٣٧٦ .
(٤) تاريخ ابن العبري الليبي : جزء اول : في كلامه عن البطريرك سرجيس .

البرادعي فولا الاسكندري بطريركاً لانطاكية (٥٤١–٥٧١) . ومما مرّ القبيل على بطريركيته حتى حاول التحطّي من الكرسي الانطاكي الى الكرسي الاسكندري وكان اهل الاسكندرية مصمّمين ان ينتخبوا لذلك الكرسي اثناسيوس حفيد ثيودورا الملكة . فكتب البطريرك فولا توصّلاً الى مأربه رسائل للذمّ وقدح في حق اثناسيوس استفظعها الاسكندريون ورفعوا عليه الشكاوى مدّعين ان ترقيته الى الكرسي الانطاكي لم تكن قانونية ولم يوافق عليها اساقفة الابرشيات السريانية جمعاء وأيدوا دعواهم بحجج صادعة ورفعوها الى اثناسيوس المذكور وهذا بدوره عرضها على القيصر. فسخط على فولا اشدّ سخط وبلغ النزاع مبلغه وظل الخصام قائماً مدة ثلاث سنوات على تقدّم وساق ريثما توسط المنذر الثالث (٥٦٥–٥٨٠) لدى المطران يعقوب البرادعي فاقرّه في الكرسي الانطاكي لكنه عاد وحرمه محاباةً لاهل الاسكندرية وبعث ثلاثة اساقفة الى سوريا ليذيعوا الحرم عليه في البلاد . فاضطر البطريرك فولا ان يتوجه الى قسطنطينية ويتروى في احد الديورة . واتفق ان توفي يعقوب البرادعي عام ٥٧٨ في الاسكندرية فانتهز الفرصة دميان بطريرك القبط وقدم الى انطاكية في اسقفين من اساقفته يحاول ان ينصب للسريان بطريركاً ثانياً بدلاً من البطريرك فولا . لكنه فشل في مهمته وانطلق الى قسطنطينية لعله يتمكن من تنفيذ أربه .

وكان المنذر الغساني يومئذ في العاصمة فجعل يعنّف البطريرك دميان على فعلته الذميمة الشاذّة ويشير عليه ان يكفّ عن معاداة البطريرك فولا . فأقسم له البطريرك دميان في ازالة الخلاف وحسم النزاع . لكنه ما وصل الى الاسكندرية حتى جدد حنقه وتحامله على البطريرك السرياني فكتب اليه المنذر رسائل ذمّ وتقريع لم تؤثر فيه ولا في الاقباط الخاضعين له [1] .

ولما رأى اساقفة السريان ان لا سبيل الى رجوع البطريرك فولا على رغم ما تبادله الفريقان في ذلك من الرسائل [2] عقدوا مجمعاً في دير مار حنانيا بين بالس والرقة حيث كان النفوذ الغساني منتشراً . واصطفوا بطرس الرقّي للكرسي الانطاكي وسلموا اليه عصا الرعاية عام ٥٧١ ووضع عليه يوسف مطران آمد وخدم البطريركية عشرين سنة .

ونسج المنذر الثالث على منوال ابيه الحارث الخامس في مناضلته عن السريان المنوفيزيتيين اينما كانوا . وكتب من الجملة الى طيباريوس قيصر (٥٧٨–٥٨٢)

---

(١) فيه : جزء ١ اخبار البطريرك فولا .

(٢) اشتملت مخطوطة لندن السريانية الموسومة بالرقم ٧٥٤ على ٤٤ رسالة تبودلت بين البطريرك فولا واساقفة السريان المنوفيزيتيين .

والى غريغور بطريرك السريان الملكيين الانطاكي (٥٧٠–٥٩٣م) في اعادة الصلح والسلام الى الكنائس وإطلاق الحرية لكل نصراني في قضاء فروضه الدينية كيفما شاء وحيثما شاء . قال ميخائيل الكبير :

« افرغ المنذر كل الجهد في مساعدة المونوفيزيتيين لانه كان مونوفيزيتياً بحتاً متحمساً . اما البطريرك غريغور فلم يحضر عقد الصلح بل لم يسمح ان تقرأ رسالة الملك »[١] .

١٢ — اساقفة غسان

لسنا نغالي ان صرحنا بان المونوفيزيتية ارتكزت في بيعة السريان على دعامتين هما : يعقوب البرادعي مطران الرها وثيودور مطران بصرى وعرب غسان السابق ذكرهما وعلى تمادي الزمان انشأ السريان المونوفيزيتيون ست ابرشيات في غسان وهي : بصرى وأذرع وبيتديبا . ثم الرصافة وبالس وقنسرين وتدمر والعرب .

اولا — مطارنة بصرى وملحقاتها

اولهم ثيودور حليف يعقوب البرادعي ثم يوحنا صاحب النافور المعروف باسمه وبدؤه « [illegible] يا ايها الاله الواهب الحياة »[٢] .
ونصب البطريرك قرياقس (٧٩٣–٨١٧) لأذرع اسقفاً اسمه جورجي[٣] وكان مترهباً في احد اديار غسان . وتسلسل اساقفة السريان في حوران حتى القرن الحادي عشر .

ثانياً — مطارنة الرصافة

الرصافة واسمها القديم رَصَف (اشعيا ١٢:٣٧) عُدَّت الحادية عشرة في جملة المطرانيات الخاضعة للكرسي الانطاكي[٤] وكان تحت سلطتها البيعية خمس اسقفيات . وقد أطلق عليها اسم « سرجيوبوليس » تكريماً للشهيد سرجيس المشهور في عهد مكسيميـنس قيصر (٣٠٨–٣١٣) . وكان سرجيس من ابطال القوّاد في الجيش الروماني ومن المقربين في البلاط الملكي. وجّهه القيصر الى الرصافة مع صديقه باخس وكتب الى انطيوخس حاكمها ان يقنعهما في العدول عن عقيدتهما النصرانية والا فيفتك بهما . على ان القائدَين واجها الحاكم المذكور

(١) ميخائيل الكبير ٣٧١ .
(٢) رينودوت ٢ : ٤٢ .
(٣) نقلنا اسماء مطارنة غسان واساقفتها عن اللوائح الملحقة بتاريخ ميخائيل الكبير : صفحة ٧٥٢ ٧٦٨ .
(٤) مجلة الآثار الشرقية : السنة الاولى ٣٤٥ .

في بالس فأمر بتعذيبه بالحبس اولاً وقتله . ثم مضى بسرجيس الى قرية (شورا) البعيدة ٩ اميال عن الرصافة وجعل يلح عليه ليضحي للوثن فأبى . فأمر انطيوخس بقطع هامته فانشقت الارض وأخفت دماءه . ولما حدث نيران الاضطهاد ابتنى المؤمنون في الرصافة كنيسة فخمة تيمناً باسم سرجيس اجتمع الى تدشينها ١٥ اسقفاً من اطراف سوريا وما بين النهرين [1] .

وقد سبقنا فقلنا ان فريقاً من امراء غسان وفي جملتهم جفنة ابو كرب اتخذوا الرصافة حاضرةً لملكهم وكانوا يقصدون قبورهم الدينية في بيعة مار سرجيس ويحجونها مراراً ولا سيما وقت الطواري والنوازل والمعامع . والى ذلك يشير الاخطل بقوله :

فاذهب وصيب طالعاً ... قبر سرجيس وبيعة بقه
وبصرمر ريان يومعـ ... ـكفر ـ وزادان ومزاحم [2]

وقال جرير يؤيد تعلق غسان بمزار سرجيس واستشفاعهم به .

يستنصرون بمار سرجس وابنه ... بعد الصليب وما هم من ناصر

اما مطارنة الرصافة السريانيون فنذكر منهم : ١ً — ملكيصادق . ٢ً — شمعون . وخلفهما مطارنة سريانيون حتى القرن العاشر .

ثالثاً — اساقفة بالس

بالس او بلش في السريانية مدينة من جند قنسرين بلاد سوريا واقعة على شط الفرات الغربي . وهي اول مدن الشام من العراق وفي شرقيها الرقة . جعلها بطاركة السريان اسقفية فنصب لها البطريرك قرياقس اسقفاً اسمه ايونيس وقام بعده اساقفة تسلسلوا حتى القرن الحادي عشر .

رابعاً — اساقفة قنسرين

قنسرين وفي السريانية قنشرين بالشين اي عش النسور كانت مدينة كبيرة وقاعدة كورة منها حلب . ثم ضعفت بقوة حلب وخربت حتى أمست قرية حقيرة في عهدنا . وابتنى السريان فيها اديراً جمة أعظمها واشهرها دير يوحنا برافتونيا الذي تثقف فيه عدة رهبان ارتقوا الى المناصب البيعية العالية وصنفوا كتباً جمّة تستحق الاعتبار وهي وطن القديس ربولا مطران الرها (٤١٢—٤٣٥) الشهير . وقد جعلها بطاركة السريان كرسياً اسقفياً عرفنا من اساقفتها سويرا

(١) اخبار الشهداء والقديسين : طبع الاب بولس بيجان ٣ : ٢٨٣.
(٢) ديوان الاخطل ٣٠٩ .

سابقت نحو السنة ٦٤٠ صاحب التصانيف الشهيرة . وتوفي اسقفيته حنانيا وخلفه في كرسيها عدة اساقفة تباعاً حتى اواسط القرن العاشر.

خامساً — اساقفة تدمر

لم نعرف من اساقفة السريان في تدمر سوى اسقفين : احدهما شمعون في عهد البطريرك قرياقس وثانيهما يوحنا في عهد البطريرك ديونيسيوس التلمحري في القرن التاسع.

سادساً — اساقفة العرب

بهذا العنوان قرأنا في لائحة البطاركة ويحتمل الكثير ان بعض اساقفة سريان تولوا سياسة العرب النصارى . ونرجح انهم كانوا يرحلون مع امم ارشيتهم ويقيمون ثم الفرائض الدينية تحت الخيام على مذابح منقولة . ويتسلسل اولئك الاساقفة حتى القرن الثاني عشر وعنوانهم في السريانية اساقفة [illegible] العربية او حقط الامم .

١٣ — اديار غسان

حفظت مخطوطة المتحف البريطاني السريانية ٤٤ رسالة [1] في جملتها رسالة رقمها ٢٣ عنوانها : « [illegible] : نسخة رسالة البطريق الخارث المجيد التي كتبها الى المطران مار يعقوب » البرادعي . ومنها رسالة رقمها ٢٩ كتبها ٤٥ رئيساً من رؤساء أديار السريان اجتمعوا في ١٧ ايار ٥٦٧ م في دير مار يس او بسوس بقرية ابيتو المجاورة لانطاكية وتشاوروا في ما نُقل اليهم من أخبار العاصمة عن الامانة المنوفيزيتية وقد وقع عليها اولاً ماري رئيس دير مار يس ثم رئيس دير تل عدا الكبير ورئيس دير مار اوسيب في كفربرتا ورئيس دير مار يوحنا في زغبا الخ. الخ.

وفي المخطوطة عينها رسالة رقمها ٣١ وقعها ٥٨ رئيساً في دير مار يس بتاريخ ٣ كانون الثاني ٥٧١ م نذكر منها دير داود بقنسرين ودير تل عوقبرين ودير سرمدا ودير رومانا ودير العرب ودير نيرب الخ. الخ.

اخيراً ورد في تلك المخطوطة النفيسة عينها رسالة رقمها ٤١ عنوانها :

« [illegible] . »

الرسالة التي انشأها رؤساء أديار العربية وبعثوا بها الى الاساقفة الارثوذكسيين»

(١) مخطوطة لندن : رقم ٧٥٤ .

اعني السريان المونوفيزيتيين . وهذه الرسالة التاريخية الثمينة وقعها ١٢٤ رئيساً من رؤساء اديار سوريا الجنوبية الغربية بينهم ١٨ رئيساً سريانياً كتبوا اسماءهم باليونانية . اما البقية فوقعوا أسماءهم في السريانية . نذكر من تلك الاديار

دير ايليا . دير ايوب . دير البرج الابيض . دير بيث ابلونا دير بيت حان دير بيت يمي . دير تنين . دير تالي . دير حنفة . دير جوبايا . دير حدثا دير حمود . دير السيدة مريم . دير داود . دير داريا الكبير . دير ريشايا . دير صنرين . دير العمود دير علمات . دير عين حدي . دير قارين دير قانيثا . دير كينا . دير كفرحوزا . دير كفرحوز دير كفرزعورا . دير كفرسوسيا . دير كفرسوتا دير كفركوب دير كفركومرا . دير متا . دير موسا . دير يونان الخ الخ

واغلب اسماء تلك الاديار سريانية محضة كما ترى وهناك دير يقال له دير عوقت وقّع سرجيس رئيسه اسمه هكذا « [illegible] [illegible] [illegible] أمضيتُ بدلاً من القس مار اوسطث نائبي . وهو قسيس بيعة البطريق المنذر المجيد المحب للمسيح » . وهو المنذر الثالث (٥٦٥–٥٨٠) ابن البطريق الحارث الخامس .

١٤ — مخطوطات السريان في غسان.

نختم هذا القسم بذكر أثرين سريانيين نفيسين نُسخا في غسان تضمن الاول شرح فم الذهب لانجيل متى الرسول نُسخ في القرن السادس . وهذا تعريب ما ورد فيه نقلاً عن الاصل السرياني : .

« هذا الكتاب يخص دير زجل المجاور لتدمر . اهتم بنساخته شمعون رئيس الدير في عهد الاسقفين يعقوب (البرادعي) وثيودور (مطران بصرى) . نسأله تعالى ان يتعطف بدعائها على الملك كُرَيب(١ وعلى جميع اخوته ويهدي الضالين منهم الى معرفة الحق... نسخ سنة ٨٨٦ للاسكندر (٥٧٥ م) وهو يخص دير مار موسى المشيد في الجبل المدعو « القمة الكبرى » شرقي النبك بولاية دمشق . اجتهد في وضعه الاباتي مار جورجي اسقف تدمر . وهذا الاسقف تنقف في دير مار موسى الواقع في الجبل المدعو «القمة الكبرى» شرقي قرية النبك بمعاملة دمشق كرسي المطرانية »(٢.

اما الاثر الثاني فهو مخطوطة سريانية قديمة العهد تضمنت أخبار الرهبان والنساك وورد فيها مـــا تعريبه :

(١) هو النعمان السادس (٥٩٧–٦٠٠) المعروف بابي جفنة وأبي كريب كما مر في المتن .
(٢) مخطوطة لندن : رقم ٥٨٥ صفحة ٤٦٨ من الفهرس .

« هذا الكتاب يختص (بيعة) مار شمعون الحبيس بكورة نصرى وهو ساكن في حدود مرّتى . نسخه سنة ٩١٥ ليونان (٦٠٤ م) . اما الكتاب فيختص الدير المقدس المؤسس على اسم القديس مار شمعون ومار يوحنا الحبيس بجبل هحن شرقي قاسطرة متّى »(١).

فكل ما بسطناه من أخبار غسان الدينية يبرهن جلياً على انتشار السريان منذ القديم في سوريا الجنوبية الغربيـــة انتشارهم في سوريا الشرقية والغربية . ويصرّح بان الامراء الغسانيين كانوا من اقوى المدافعين عن العقيدة المنوفيزيتية ومن اكبر المحامين عن بطاركة السريان المنوفيزيتيين وعن اكليرسهم وكنائسهم وأديارهم .

القسم الثاني

اخبار غسان السياسية

قسم السريان نصارى العرب قسمين : الغساسنة والمناذرة . حالف اولها قياصرة الروم وعاهد ثانيهما أكاسرة الفرس . وكانت الجولان او البلقاء حاضرةً للغساسنة والحيرة قاعدةً للمناذرة . وحصلت بين القبيلتين عدّة مناوشات ومعارك كانت الغلبة فيها تارةً لاولئك وحيناً لهؤلاء . واستمرّت الحروب بينهما حتى اواسط القرن السابع للميلاد فألقى أغلبهم السلاح والرماح وانحازوا الى الآراميين سكان سوريا الاصليين وغيرهم وتخلّقوا بأخلاقهم وتزيوا بأزيائهم . ومكث قوم منهم راسخين في العقيدة المنوفيزيتية حتى القرن الثالث عشر . واليك مجمل اخبار الامراء الغسانيين وقياصرة الروم :

١ – يسطنيان (٥٢٧–٥٦٥) والحارث الخامس (٥٢٩–٥٦٥)

في السنة ٥٥٤ للميلاد وهي السنة ٣٧ ليسطنيان و٢٥ للحارث أمير غسان زحف المنذر الثالث (٥١٣–٥٦٢) ابن النعمان من الحيرة في جيوشه الى بلاد الروم وعاث فيها وأتلف مزارعها . فركب اليه الحارث الغساني وبطش به في كورة قنسرين وشرّد رجّالته وزجّالته وارتجع اراضي الدولة الرومية وعاد الى حافريه ظافراً منتصراً . فكبرت منزلته في عين القيصر وجاد عليه بالحلع الوافرة والتحف الثمينة . وتوفي في تلك الغضون نجل الحارث ودُفن بحضور أبيه في مقبرة عين عودايا المجاورة لقنسرين [٢] . وظلت عهود الولاء والإخلاص ثابتةً راسخةً بين يسطنيان والحارث حتى وفاتهما .

(١) مخطوطة لندن : رقم ٥٧٥ صفحة ٥٨٤ من الفهرس .
(٢) تاريخ الدول السرياني : لابن العبري ٨٩ – وتاريخ الرهاوي ٥٦ : ١٥ .

٢ – يسطيس الثاني (٥٦٥–٥٧٨) والمنذر الثالث (٥٦٥–٥٨٠)

وفي السنة الرابعة ليسطيس شدّ الفرس على نصيبين مدينة الحدود الفاصلة بين أراضي الدولتين الرومية والفارسية واحتلوها واحتلوا معها مدينة دارا القريبة منها ثم زحف قوس ملك المادرة (٥٦٩–٥٧٣) الى بلاد غسان وغزر مواشيهم وأفسد أراضيهم . فحشد المنذر الغساني عساكره وانصبّ على المادره وتتبعهم وعاد الى بلاده في عساكر جمة وجمال وافرة . بيد ان قابوس كرّ على المنذر ثانية يريد إتلافه ولكنه اخفق في هذه المرة ايضاً وانقلب الى بلاده ليأتي جديد حدد ويستأنف القتال مع غسان

استدرك المنذر خديعة قابوس حصنه فكتب الى القيصر يتظلم منه ملاً ودحيرة يزرعب على حدوده ، يهجم بهم على المادرة ويكتسحهم لكن يسطيس رفض طلب المنذر وترى ان يفتك به زاعماً ان الفرس لا يصنعون باحتلال بلاد الروم الاّ نسيبه . فلمعت له نيته الخبيثة ان يكتب الى مرقيانا قائد جيشه – وكان يومئذ في نصيبين – ليحتال على قتل المنذر . فكتب اليه يقول :

« كتبنا الى المنذر في الشخوص اليك فاحتل عليه وخذ رأسه واكتب لنا».

ثم كتب الى المنذر يقول :

« امرنا مرقيانا القائد الا يُقدم على عمل يتعلق بمصلحته دون مشورتك . فسر اليه مع وصول كتابنا هذا اليك ».

قال المؤرخ المنوفيزيتي :

« تعطّف الله جلت قدرته على شعبنا السرياني فأنقذ المليك المنذر من تلك الداهية الدهياء . وذلك ان كاتب القيصر بعدما نسخ الرسالتين في وقت واحد وختمها . كتب اسم المنذر سهواً على رسالة مرقيانا واسم مرقيانا على رسالة المنذر . وبوصول الرسالتين انكشفت الدسيسة وافتضحت الخديعة . فاضطر المنذر ان يأخذ حذره من القيصر وأحجم عن استئناف القتال وعقد الصلح مع العرب المناذرة . واتفق الغساسنة والمناذرة معاً على غزو بلاد الروم واتلاف مزارعهم . فغلب على ظن القيصر ان مرقيانا أفشى السر فاستشاط غيظاً وألقى القبض عليه»(١).

٣٠ – طيريوس قيصر (٥٧٨–٥٨٢) والمنذر الثالث والنعمان ابنه

بلغ المنذر أن طيريوس قيصر خلف يسطيس في عرش الدولة الرومية فرأى ان يشخص الى العاصمة ليهنئه ويقرّر له عهود الولاء كآبائه وأجداده . ولما واجه القيصر أخذ يعاتبه لكونه تخلف عن الذهاب الى اقاميا في جيوشه

(١) تاريخ الدول للسرياني : لابن العبري ٨٥ و ٨٦ تاريخ الزعاري ٦٧ : ١٢٤ .

ليكشف عنها المنادرة . فقال له المنذر : صدقتَ ايها القيصر في ما قلت وكان بوسعي ان انازل المناذرة واناجزهم القتال واردّهم على أعقابهم باذن الله تعالى . غير ان هناك مسئلة جوهرية أقعدتني عن الايقاع بهم . قال هذا وأخرج من عبه رسالة بسطيلس الموجهة الى مرقيانا ودفعها الى القيصر . فدهش كل الدهش وامتُقع لونه وطفق يجامل المنذر الامين ويبالغ في تكريمه . ثم انحفه بهدايا فاخرة وافرة وجاد عليه بتاج ذهبي زين به مفارقه . فكان المنذر الثالث اول ملك غساني لبس التاج [1] .

وثق المنذر باخلاص القيصر وولائه فجيّش جيوشاً كثيفة من روم وعرب وزحف بهم الى بلاد فارس يؤازره القائد موريقي قيصر . فحاصروا اول بدء بلدة « عسّنت » واحتلوها ثم ركبوا السفن في الفرات يريدون الرقة وقاتلوا الفرس حتى كادوا يطوون عليهم ويثلمونهم عن بكرة أبيهم .

ولما ضاقت الحيل بأدرهمون قائد الجيوش الفارسية وعجز عن القتال أرسل الى المنذر يشاغله ويقول : « الأجدر ان نكفّ غداً الاحد عن القتال ونستأنفه يوم الاثنين » . فرضي المنذر باقتراح ادرهمون طمعاً باستراحة رجاله واستجماع قواهم . غير ان الفرس تفلّتوا تلك الليلة وانقلبوا الى مدينة تل موزل وسبوها ثم صاروا الى نصيبين ودير قرتمين بطور عبدين وانكفتوا الى بلادهم .

غلب على ظنّ موريقي القائد أن المنذر خان الدولة الرومية وأطلق الحرية للجيش الفارسي في الهزيمة . فانقلب الى العاصمة ووشى به الى القيصر . فارتاب القيصر في الامر ونغلت نيته على المليك الغساني واعتزم ان يقبض عليه ويطرحه في السجن . واتفق ان مغنا (صهرنا) والي الرها صديق المنذر كان يوم ذاك في العاصمة فتقابل القيصر ووعده ان ينفذ امره . ثم انه توصلاً الى مأربه تمارض وانطلق الى حمّام مجاورة لحمص وكتب من هناك الى المنذر يقص عليه خبر مرضه ويسأله ان يعوده ومما كتبه اليه قوله :

« ارجو ان تقدم الي لاطلع على احوال صحتك . وليلا ما تكلفته من مشقات السفر لبادرتُ انا اليك وتجدت لك » .

لبّى المنذر نظراً الى صفاوة قلبه طلب صديقه مغنا وسار اليه مع بعض رجاله في هدايا جزيلة . وما ان شعر مغنا الخائن بقدوم المنذر حتى ترك الحمام وانقلب عائداً الى حمص . فوصل المنذر الى الحمام ثم استأنف المسير الى حمص فخرج مغنا الى لقائه ورحب به ترحيباً جميلاً وأمر له بمحل ينزل فيه وأطلق الحرية لجنوده ليطوفوا في المدينة . ولما جلسا الى مائدة الطعام أومأ مغنا الى اصحابه فقبضوا

(١) مجلة البطريركية السريانية : في القدس مجلد ٧ صفحة ٢٦٨ .

على المنذر وصفّدوه بالاغلال ومضوا به الى حاكم المدينة فسيّره على تلك الحال الى العاصمة ثم بغداد القيصر الى جزيرة صقلّية وظل في منفاه حتى السنة ٦٠٢ [١] .

سمع الخبر النعمان بن المنذر ففار فائره واستفظع الخيانة وجهز الجنود واستاقهم الى بلاد سوريا ولا سيما الى اطراف مدينة الرها مركز مغنا المحتال الغدّار وجعل يعيث فيها . غير انه لم يفتك باحد قط حرصاً على حياة المنذر ابيه . اما القيصر فكتب الى مغنا ليقبض على النعمان وعلى اخوته كما قبض على المنذر ابيهم ويتولى هو امارة العرب الغساسنة . فانطلق الى الرها وراسل النعمان يحادثه ويماذقه كأنه يروم ان يقلده الامارة مكان ابيه المنذر اذا وافى اليه .

استدرك النعمان دسيسة مغنا الخبيث فاستدعى رحلاً عربياً من رحاله وألبسه ثيابه وسيّره اليه في بعض الجنود . ولما وصل العربي الغساني قال له مغنا : أأنت النعمان بن المنذر ؟ قال العربي ؟ بلى وقد جئتُ طبقاً لامرك . صاح معه حرسه وقال لهم : دونكم عدوّ القيصر أوثقوه . فضحك العربي وقهقه وقال لهما : تويتم الاحتيال علينا فسبقناكم في الحيلة . كلا وحقّ المسيح لست انا النعمان !

فصمم مغنا ان يغدر بالغساني لكن الغساني لم يعبأ به بل قال له : انا في كلتا الحالتين عرضة للقتل . فلو عصيتُ مولاي النعمان وخالفت أمره لقتلني . وقد قضيتَ انتَ في قتلي لاني خضعتُ له واقبلت اليك . فاكتفى مغنا بان ألقى الغساني في السجن وما مرّ القليل حتى مات الخائن اختنا [٢] .

٤ — موريقي قيصر (٥٨٢—٦٠٢) والنعمان السادس (٥٩٧—٦٠٠)

استهان النعمان امير غسان بحياته وقصد العاصمة ليهنئ الملك موريقي بجلوسه على تخت السلطنة ويسأله خصوصاً ان يُطلق والده المنذر من السجن . فوعده القيصر على شرط ان يقاتل الفرس ويكشفهم عن بلاده . ثم عرض عليه ان يحضر القداس في الكنيسة ويتناول القربان الاقدس . فاستعذر النعمان وقال للقيصر : « ان قبائل العرب جمعاء هم يعاقبة فاذا شعروا بمخالفتي اياهم في المعتقد قتلوني لا محالة » . فتركه القيصر وشأنه . ولما انصرف النعمان أقسم انه لن يواجه القيصر على الاطلاق فسمع بعض الجنود كلامه وتتبّعوه وقبضوا عليه فنفاه الملك كما نُفي المنذر أبوه [٣] .

(١) مجلة البطريركية السريانية ٧ : ٢٦٨ .
(٢) تاريخ الرهاوي ٨٣ : ١٢٥ .
(٣) تاريخ الرهاوي ٧٤ : ١٢٧ وابن العبري ٨٨ .
(٤) تاريخ الرهاوي ٧٧ : ١٣٠ وابن العبري ٨٩ .

د ـ تبادل موريقي وكسرى الرسائل على يد نعمان السادس

في السنة الثامنة لموريقي خلع الفرس ملكهم هرمزد وسملوا عينيه وملكوا بدلا منه ابنه كسرى ملكاً (٥٨٩ـ٦٢٧) . فانتقض بهرام المرزبان على الملك الجديد وحاول ان يقتله ويملك مكانه . فانفلت كسرى من دهائه وتنكر كأنه سائل مُكدّ وصار الى الرها ومنها الى منبج وكتب الى ابي جفنة ابي كرب وهو النعمان السادس وكان وقتئذ في الرصافة يسأله ان يشخص اليه . فبادر النعمان الى منبج واجتمع بكسرى وتفاوضا ملياً وأجمعا على ان يكتب كسرى الى موريقي ويصرح له بمكنونات صدره ويستنجده على بهرام المغتصب . فكتب كسرى الى موريقي كتاباً موثراً ودفعه الى ابي جفنة الغساني لينقله اليه [1] وهذه نسخته :

« للاب المبارك والسيد المقدم موريقي ملك الروم من كسرى ابن هرمز السلام .

« اما بعد فاني أعلم الملك ان بهرام وممّن معه من عبيد ابي جهلوا قدرهم ونسوا انهم عبيد وانا مولاهم . وكفروا نعمَ آبائي لديهم فاعتدوا علي وارادوا قتلي . فهممت ان أفزع الى مثلك فاعتصم بفضلك واكون خاضعاً لك. لان الخضوع لملك مثلك وإن كان عدواً أيسر من الوقوع في أيدي العبيد المَردة . ولأن يكون موتي على ايدي الملوك أفضل واقلّ عاراً من ان يجري على ايدي العبيد . فنزعت اليك ثقةً بفضلك ورجاء ان تترأف على مثلي وتمدني بجيوشك لاقوى بهم على محاربة العدو وأصير لك ولداً سامعاً ومطيعاً ان شاء الله تعالى » .

وثق القيصر بتصريح كسرى وعزم على اجابة مسئلته لانه لجأ اليه . فأنجده بعشرين الفاً وعلى رأسهم ايونيس قائد جيش تراقية ثم شفعهم بعشرين الفاً آخرين وجههم مع القائد انسطاس . واضاف الى ذلك اربعين قنطاراً ذهباً وكتب الى كسرى كتاباً سلمه الى ابي جفنة الغساني ليحمله اليه وهذه نسخته :

« من موريقي عبد يشوع المسيح الى كسرى ملك الفرس ولدي وأخي السلام .

« أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمتُ ما ذكرتَ فيه من أمر العبيد الذين تمرّدوا عليك . وكونهم عمطوا أنعمَ آبائك وأسلافك غمطاً وخروجهم عليك ودحضهم اياك عن ملكك . فتداخلتني من ذلك أمر حركني على التأسف بك وعليك وإمدادك بما سألت .

« فاما ما ذكرت من الاستتار تحت جناح ملك عدو والاستظلال بكنفه آثرُ من الوقوع في ايدي العبيد المَردة والموت على ايدي الملوك افضل من الموت على ايدي العبيد فانك اخترتَ افضل الخصال ورغبتَ الينا في ذلك . فقد صدّقنا قبلك وقبلنا كلامك وحققنا أملك وأتممنا بغيتك وقضينا حاجتك وحمدنا سعيك وشكرنا حسن ظنك بنا . ووجهنا اليك بما سألت من الجيوش والاموال . وصيّرتُك لي ولداً وكنتُ لك أباً . فاقبض الاموال

(١) تاريخ الرهاوي ٨٠ و ٨١ صفحة ١٣٢ و ١٣٣ .

مباركاً لك فيها وقُد الجيش وسرْ على بركة الله وعونه ولا يتحرك التصحر واتبع . ولا تتقصّر لعدوك ولا تتقصّر فيما يجب لك اذا تطأطأتَ من درجتك وانحططتَ عن مرتبتك . واني ارجو ان يظفرك الله بعدوك ويرد كيده في نحره . ويعيدك الى مرتبتك برجاء الله تعالى» (١ .

سُرّ كسرى بجواب القيصر وانطلق الى العاصمة مطمئناً . فرحب به موريقي ترحيب الملوك وبالغ في تعزيزه وأنفذ كل ما وعده به . وتأييداً لعهود الصلح والولاء رفّ اليه القيصر ابنته ماريا . فذهب كسرى بعروسه الى عاصمته واتخذ لها ثلاث كنائس : الاولى على اسم العذراء والدة الله والثانية على اسم الرسل والثالثة على اسم مار سرجيس [٢] شفيع الغساسنة . وتعزّزت النصرانية في البلاد الفارسية على يد الملكة ماريا . وانطلق اسطاس الثاني بطريرك السريان الملكيين (٥٩٩ـ٦١٠) فدشن تلك الكنائس الثلاث واستتبّت الطمأنينة بين الدولتين الرومية والفارسية . وظل كسرى مخلصاً في عهوده ومواثيقه يؤدي للقيصر فروض التكريم ومعرفة الجميل كالابن لابيه [٣] .

٦ ـ انتراض الامارة الغسانية

ظلّت أمارة غسان النصرانية زاهرةً حتى اوائل القرن السابع للميلاد . ثم انتُزعت من يدهم في عهد الامير جبلة السادس (٦٣٠ـ٦٣٧) الذي جاهر بالاسلام على يد الخليفة الراشدي عمر بن الخطّاب (٦٣٤ـ٦٤٤) . قال ابو الفرج ابن العبري :

« انطلق جبلة الى يثرب وحضر مع عمر في المسجد . فتصدّى له رجل من قبيلة فزارة ووطئه برجله . فسخط جبلة وضرب الفزاريّ وهشم أنفه . فرافعه الفزاري الى عمر فقال عمر لجَبَلة : أرضه او دعه يهشم أنفك . قال له جبلة : كيف يتيسر لملك مثلي ان يغمصّ عن رجل سوقة يضربه ؟ قال عمر : ان كنت اكرم منه في الملك فانت مساو له في الاسلام . قال جبلة : اذاً امهلني حتى الصباح لاختار احد الأمرين : ولما جنّ الليل تهض جبلة بخيله ورواحله وانهزم برجاله الى قبذوقية وعادوا الى النصرانية» (٤.

٧ ـ رواية ابي الفرج الاصبهاني عن الخليفة الراشدي والامير الغساني

توسع ابو الفرج الاصبهاني (٨٩٨ـ٩٦٦ م) في تفصيل ما حدث لجبلة الغساني مع الخليفة عمر قال ما خلاصته :

(١) تاريخ مختصر الدول : لابن العبري ١٥٢ـ١٥٤ طبعة الاب انطوان صالحاني اليسوعي .
(٢) ميخائيل الكبير ٣٨٧ والدول السرياني : لابن العبري ٩٢ .
(٣) الزهاوي ٨١ : ١٣٣ .
(٤) تاريخ الدول السرياني ١٣١ـ١٣٣ .

« لما أسلم جبلة الغساني كتب الى عمر يستأذنه في القدوم عليه فأذن له . فخرج اليه جبلة في ٥٠٠ من اهل بيته حتى اذا كان على مرحلتين كتب اليه يعلمه بقدومه . فسُر عمر وأمر الناس ان يستقبلوه . اما جبلة فاشار الى مائتين من اصحابه فلبسوا السلاح والحرير وركبوا الخيول معقودةً أذنابها وألبسوها قلائد الذهب والفضة . ولبس جبلة تاجه وفيه قُرطا حدقه ماريّة ودخل المدينة . فلم يبق بكر ولا عانس الا تبرجت وخرجت تنظر اليه والى زيّه . ولما انتهى الى عمر رحب به وألطفه وادنى مجلسه . ثم أراد عمر الحاج فخرج معه جبلة وكان من امره ما كان مع النزاري وانهزم جبلة في رجاله كما ذكرنا آنفاً . واستملى ابو الفرج الاصبهاني يقول : كتب عمر الى هرقل يدعوه الى الاسلام وارسل الكتاب مع جثامة الكناني فاجاب هرقل الى كل شيء سوى الاسلام . ولما اراد جثامة الانصراف قال له هرقل هل رأيت جبلة ؟ قال لا . قال فالقَه .

توجه جثامة الى قصر جبلة ورأى عنده من البهجة والحسن ما لم يَرَه بباب هرقل . فشاهده في بهو عظيم فيه من التصاوير ما لم يُحسن وصفه . وكان جبلة مستوياً على سرير قوائمه اربعة أسد من ذهب . وبين ايديه من آنية الذهب والفضة ما لم يَرَ أحسن منه . وكان جبلة اصهب ذا سبال وعثنون فسلم عليه جثامة فرحب به جبلة وألطفه وأقعده على كرسي من ذهب فانحدر عنه . فقال له جبلة : اذا طهّرت قلبك يا هذا لا يضرّك ما لبسته ولا ما جلستَ عليه . ثم أومأ جبلة الى غلام فولّى يحضر . وما كان الا هنيهة حتى اقبلت الاخونة يحملها الرجال فوُضعت وجيء بخوان من ذهب فوُضع امام جثامة . وأديرت الخمر فاستعفى منها . ودعا بكاس من ذهب فشرب منها خمساً عدداً . ثم حضر عشر جوار قعد خمس عن يمينه وخمس عن شماله تلاهنّ عشر جوار أفضل من الأول عليين الوشي والحلي . ثم قال لمن جبلة : أطربني . فخفقن بعيدانهن يغنين :

لله درّ عصابة نادمتهم يوماً بجلّق في الزمان الاوّل
يبضُ الوجوه كريمة أحسابهم شمّ الانوف من الطراز الاول

فاستهلّ جبلة واستبشر وطرب ثم قال للجواري زدنني فاندفعن يغنين :

لمن الدار أقفرت بمعان بين شاطىء اليرموك فالصمّان
فحمى جاسم فأودية الصفر مغنى قبائل وهجان
فالقريّات من بلاس فداريّا م فكّا فالقصور الدواني
ذاك مغنىً لآل جفنة في الدهر وحقّ تعقّب الازمان
قد دنا القصح فالولائد ينظمن سراعاً اكلّة المرجان...

فقال جبلة لجثامة : اتعرف هذه المنازل ؟ قال لا . قال جبلة : هذه منازلنا في ملكنا باكناف دمشق . وهذا شعر حسان بن ثابت . قال جثامة : انه مضرور البصر كبير السن . فاحضر جبلة ٥٠٠ دينار وخمسة اثواب من الديباج وقال لجثامة : ادفع هذا الى حسان واقرأه مني السلام . فسلم جثامة على جبلة وانصرف الى الخليفة عمر وقصّ عليه القصة من اولها الى آخرها . ثم قال له عمر : هل سرّح جبلة معك شيئاً ؟ قال جثامة : سرّح الى حسان ٥٠٠ دينار وخمسة أثواب ديباج . قال عمر : هاتها وبعث الى حسان فاقبل يقوده قائده حتى دنا فسلم وقال : يا امير المؤمنين اني لأجد أرواح آل جفنة .

فقال عمر : قد ارسل اليك حلة هدية ، فانصرف حسان وهو يقول :

ان ابن جفنة من بقية معشر ... لم يعدهم آباؤهم بالذوم
لم يسقي بالشام اذ هو رطبها ... كلا ولا متصرفا بالروم
يعشي الحريل ولا يراد عنده ... الا كبعض عضيهة المذموم

ثم قال حسان حشامة . مدا قال لك جبلة ؟ قال . قال لي ان وجدته حيا دفعها اليه وان وجدته ميتا فاشرح الثياب على ظهره وضع بعده الدابر سدا فاحرقها على ظهره . فقال حسان ليتك وجدتني ميتا فصنعت ذلك بي !

وذكر ابن بكار انه لما وفد معاوية رسل الخلفاء الامويين (٦٦٢–٧٥٠) بعث في جبلة يدعوه الى الرجوع الى الاسلام ووعده قطاع المعونة لأسرها فأبى ولم يثنه (١.

٨ – بيثيور ملك الروم الغساني

أقام جبلة وبنو عمه في قسطنطينية كما قدمنا وظلوا متمسكين بعقيدتهم النصرانية حتى وفاتهم . وتسلسل أبناؤهم هناك الى ما شاء الله تعالى . قال ابو الفرج ابن العبري

« من سلالة جبلة الغساني ينحدر نيقيفور قيصر الروم (٨٠٢–٨١١) الذي جلس على تخت السلطنة بعد قسطنطين السادس وامه الملكة ايرينا (٧٨١–٨٠٢) . وكان نيقيفور داهية عاقلاً ورعاً صائماً ومصليا . ذلك ما حمل الفيدي أمير صقلية ان يخاطب عبد الملك قائد الجيوش العربية ويقول له : اذا مات نيقيفور فاخلع ثوبك الناعم وتدرع بالسلاح وتهيأ للقتال . على ان نيقيفور ما كاد يجلس على سرير المملكة الرومية حتى كتب الى هرون الرشيد الخليفة العباسي (٧٨٦–٨٠٩) يثيره الى الحرب . وظل القيصر والخليفة مدة شهرين يتراسلان حتى عقدا الصلح بين الدولتين وتبادلا هدايا الاخلاص وعاد كل منهما الى عاصمته(٢.

٩ – تشتت الغسانيين في مختلف الاقطار

ما عدا الغسانيين الذين ذهب بهم أميرهم جبلة السادس ابن جبلة الخامس الى بلاد ارمينيا فان بقيتهم الباقية تشعبت على توالي الاحقاب خمس عشرة شعبة وتطرّدوا في البراري وانضم اغلبهم الى الفرس . وألقى بقيتهم السلاح واندمجوا مع اهل الحضر في سوريا وآثور وارض سنعار (العراق) . وتبع قوم منهم عقيدة الروم الملكيين . وحافظ قوم على عقيدتهم المنوفيزيتية كأهالي الحديثة وحيت وباعربايا والقريتين ببلد حمص والنبك وسائر البلاد [٣] .

هكذا انفرط عقد الامارة الغسانية النصرانية بعدما استتب لها الملك ٤٣٢ سنة بدءاً من أميرها جفنة الاول (٢٠٥–٢٤٨) حتى الامير جبلة السادس (٦٣٠–٦٣٧) . فسبحان من لا يزول ملكوته الى أبد الآبدين .

(١) الاغاني : طبعة الاب انطون صالحاني ٢ : ٢٧٦–٢٨١ .
(١) تاريخ الدول السرياني ١٣٣ .
(٢) تاريخ الدول السرياني ٨٩ .